

ظهور شعار بني نصر على مقابض الأبواب بمسجد أحمد سالم الشهير بالصيني بالإسكندرية

إسلام عاصم عبد الكريم



لوحة ١: شعار بني النصر بخط الثلث الأندلسي بقاعة المقرنصات بقصور الحمراء
عن: محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء، (الإسكندرية، ٢٠٠٤)، ٣٤٧



لوحة ٢: شعار بني النصر بخط الثلث الأندلسي بقاعة المذبية بقصور الحمراء
عن: محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء، (الإسكندرية، ٢٠٠٤)، ٢٦٧

مسجده الذي يحتوي ضريحه بالإسكندرية - الذي افتتح عام ١٩٤٥م - في العمارة والكتابات والزخارف.

إلا أن ظهور شعار بني نصر (ولا غالب إلا الله) على مقابض أبواب مسجد أحمد سالم الشهير بالصيني بالإسكندرية - والمنشأ عام ١٩٣٠م - هي سابقة فريدة ونادرة لم نجد لها مثيلاً في الفنون الإسلامية في الإسكندرية حتى الآن، لابد أن يكون لها تفسير خاصة وأن الكتابات في هذا المسجد لها مدلول خاص بظروف إنشاء هذا المسجد، لذا يجب فهم ماهية ومضمون شعار بني نصر، وتحليل الشعار وكيفية كتابته وربط ذلك بظروف إنشاء المسجد يمكن إيجاد تفسير لظهوره.

أولاً: ماهية شعار بني نصر (ولا غالب إلا الله)

كان لقب أول ملوك بني نصر^٣ محمد بن نصر بن الأحمر (٦٢٩-٦٧١هـ/١٢٣٢-١٢٧٣م) هو 'الغالب بالله'، كما أن علامته على الرسائل والوثائق كانت (ولا غالب إلا الله)، ومن هنا أصبحت تلك العبارة هي شعار بني نصر الذي يمتد على جدران قصورهم (لوحة ١-٢)،

إن تاريخ مدينة الإسكندرية بوصفها ميناء مصر الأول على مر العصور، جعل منها حلقة الوصل بين مصر وبين كل بلدان البحر المتوسط، فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً هاماً إلا أنها كانت مركزاً للحجاج المغاربة والأندلسيين، ومحطة هامة لطلبة العلم الشرعي حيث اشتهر علماءها المالكية مثل الطرطوشي^١ وغيره، كذلك اشتهرت المدينة بأقطاب الصوفية نظراً لنزوح العديد من أهل الأندلس والمغرب إليها خاصة بعد استقرار أبو العباس المرسي^٢ بها، كل ذلك جعل نزوح المغاربة والأندلسيين إلى المدينة واستقرارهم فيها يزيد من المزج الحضاري الذي عاشت فيه المدينة حتى الحرب العالمية الثانية، وجعلهم جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المدينة العريق.

وكما كان للأندلس تأثير في المجتمع الديني والثقافي في الإسكندرية في العصور الوسطى، امتد هذا التأثير إلى العصر الحديث، فتجد التأثيرات الأندلسية في العمارة والفنون الإسلامية في العصر الحديث بالإسكندرية في العديد من المساجد؛ وخير مثال لها في مسجد أبو العباس المرسي بصفته أندلسي الأصل فجاء التأثير على



لوحة ٤: شعار بني نصر على مقبض باب المخزن بمسجد أحمد سالم الشهير بالصيني

بن الأحمر و الممالك الأندلسية نجد أن هناك تشابه في المآسي والمخاطر لذا فهو اتخذ لقبه وشعار ملكه (ولا غالب إلا الله) ليؤكد أن الله سينصره في نهاية الأمر كما نصر يوسف عليه السلام.

ثانياً: شعار بني نصر بمسجد أحمد سالم

ظهر شعار بني نصر (ولا غالب إلا الله) بمسجد أحمد سالم الشهير بالصيني في حي الرمل بمدينة الإسكندرية، وأنشأ هذا المسجد تاجر الزجاج والصيني أحمد سالم عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، وظهر الشعار على مقابض الأبواب النحاسية داخل المسجد، حيث يوجد داخل المسجد ثلاثة أبواب باب حجرة الإمام وباب حجرة المخزن والباب المؤدي إلى الميضأة والضريح.

وظهر الشعار أعلى فتحة المفتاح بمقابض تلك الأبواب وكذلك على الحلية التي تواجه المقبض على مصارع الباب الثاني في باب حجرة الإمام (لوحة ٣-٤)، ونفذ الشعار بخط الثلث الأندلسي في إطار مستطيل (لوحة ٥) يتشابه ويكاد يتطابق مع أسلوب تنفيذه على جدران قصور الحمراء بالأندلس (لوحة ٦) خاصة التي بقاعة السفراء.



لوحة ٣: شعار بني نصر على مقبض باب الإمام بمسجد أحمد سالم الشهير بالصيني

وعلى التحف التي تعود إلى عصرهم، واجتهد الباحثون في تفسير تلك العبارة وارتباطها بحال الأندلس الذي كان يرثى له بعدما انحسرت دولة الاسلام في الأندلس إلى أقصى الجنوب ولم تعد تضم من القواعد الكبرى سوى غرناطة ومالقة والمرية، فنظر البعض إلى ذلك الشعار على أنه يعبر عن الخطر الجاثم على بلادهم وإحساسهم بقرب سقوط مدينتهم فهم بهذا الشعار يعظمون الله تعالى ويقرون بالغلبة والقدرة له وحده سبحانه وتعالى، في حين يفسر آخرون الشعار على أنه يشهد على عمق إيمان المرء الواقع في أسر الزمن و يشهد مع الإنسان حتى في ضرائه على غلبة الواحد القهار.^٤

ويرى الباحث أن هذا الشعار مستوحى من الآية الكريمة

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لَامْرَأَتَهُ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَدًّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)،^٥ حيث إنه بالرغم من كل المآسي والصعوبات والمخاطر التي مر بها يوسف عليه السلام إلا أن الله هو الغالب وهو من نصره في النهاية ومكن له في الأرض وأخضع إليه إخوته الذين ظلموه من قبل، وإذا ما قارنا بين حال يوسف عليه السلام وحال محمد



لوحة ٥: تفصيل من مقبض باب حجرة الإمام ويظهر شعار بني نصر في إطار مستطيل

العبرة أو البيت الشعري وقد استخدمه كتاب العلامة منذ عصر الموحدين^٧، إلا أن الباحث يرى أن الشكل الذي ينتهي به الشعار هو حرف الهاء الملفوفة في صورة مفردة مع امتداده إلى أسفل مع انحنائه لليمين ليتناسق وباقي الحروف والإطار العام للشعار.

رابعاً: ظروف إنشاء مسجد أحمد سالم

يعد هذا المسجد من أجمل مساجد الإسكندرية التي بنيت في النصف الأول من القرن العشرين، ويظهر من عمارته وزخارفه مدى الإنفاق الذي قام به صاحبه - تاجر الزجاج والصيني^٨ أحمد سالم - الذي لم ييخل عليه بأي شيء - خاصة وأنه مدفون فيه، ولعل إنشاء هذا المسجد جاء بدافع إثبات الذات وإثبات أن الله على كل شيء قدير، حيث أن أحمد سالم كان صديقاً لشعبان أبو شبانه الذي أسس سوق باكوس الحالي في الإسكندرية وله في منتصف السوق مسجد بناه لنفسه ويروي الكثيرون ومنهم وكيل جمعية مسجد أبو شبانه وكبار السن بمسجد أحمد سالم، أنه عندما أتى أحمد سالم ليهنئ أبو شبانه بإنشاء مسجده عتب عليه سوء تنظيم المسجد الداخلي

ثالثاً: تحليل شعار بني نصر بمسجد أحمد سالم في ضوء ظهوره في قصور الحمراء (لوحة ٥-٦)

بتحليل الشعار نجد أنه يتماثل تقريباً في تنفيذه مع ما يوجد على جدران قصور الحمراء، إذ نجد أن حرف الألف مثل مفرداً في لفظ الجلالة 'الله' و'إلا'، ومثل مركباً بصورته المطلقة في كلمة 'غالب' حيث يتخذ صورة صاعدة إلى أعلى في شكله المطلق متناسقاً مع باقي حروف الشعار، أما حرف الباء فجاء مركباً متطرفاً في كلمة 'غالب' حيث يتخذ الصورة المبسوطة، ويتمثل حرف الغين مبتدئاً في كلمة 'غالب' ويظهر فيها على شكل قوس يفتح جهة اليمين ويرتكز على قاعدة افقية تميل إلى أسفل لتلتقي مع حرف الألف وتعلوه النقطة، وحرف اللام ظهر في كلمة 'غالب' مركباً مبتدئاً بصورته المطلقة الصاعدة وينتهي من أسفل بانحناء مقعر جهة اليسار ليلتقي مع حرف الباء، وارتبط الحرف في تلك الكلمة مع حرف الألف في تناسق حيث تنحني نهايته العلوية ناحية اليسار في حين تنحني نهاية حرف الألف العلوية إلى اليمين، في حين يتخذ الحرف نفس صورته الصاعدة في لفظ الجلالة 'الله'، وأتى حرف الواو مفرداً بصورته المبسوطة في بداية الشعار، أما حرف اللام ألف فظهر مفرداً في صورتين، الأولى في 'ولاغالب' وظهر بصورته المرشوفة، والثانية في 'إلا الله' وظهر بصورته المحققة الموقوفة^٩، إلا أن حرف الهاء جاء مركباً متطرفاً بصورته المردوفة في لفظ الجلالة 'الله' إلا أن الهاء غير مغلقة، كما ظهرت الهمزة بين حرف الألف واللام الف في كلمة 'إلا الله' كما ظهرت في الشعار على جدران قاعة السفراء بقصور الحمراء (لوحة رقم ٥).

وينتهي الشعار بشكل يتخذ صورة 'تع' كما قرأه العديد من الباحثين، ولم يتوصل الباحثون إلى تفسير معناه أو الهدف من نقشه، ويرجح الباحث ما ذهب إليه محمد عبد المنعم الجمل إلى أن تلك الحروف تعني نهاية



لوحة ٦: شعار بني نصر بقاعة السفراء بقصور الحمراء وتظهر الهمزة بين حرفي الألف واللام ألف في (إلا)

الشعار منفذاً بخط الثلث الأندلسي على نفس نسق ما هو موجود في قصور الحمراء وخاصة في قاعة السفراء بقصور الحمراء.

وفي النهاية تجب الإشارة إلى أن المعمارين والفنانين الأجانب الذين كانت لهم الغلبة في العمارة المدنية والدينية في أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، كانت مدرسة الأندلس بالنسبة لهم أحد أهم المدارس التي استمدوا منها أساليبهم الفنية في تنفيذ عمائرهم خاصة وأن المغاربة والأندلسيين يمثلون جزءاً هاماً من تاريخ وحضارة الإسكندرية، لذا فظهور هذا الشعار وتنفيذه بهذا الأسلوب قد يكون نادراً ولم يتكرر في العمائر الدينية بالإسكندرية في تلك الفترة إلا أنه يتسق مع الأسلوب العام للفن والعمارة التي كانت تسود حينها.

الهوامش

١ هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي المشهور بابن أبي رندقة، ولد في سنة ١٠٥٨/هـ ١٠٥٨ على وجه التقريب في مدينة طرطوشة Tartosa، وفي هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ الفقيه والعالم أبو بكر الطرطوشي وعاش بها فترة طفولته وصباه وتلقى علومه الأولى في مسجدها الكبير، ثم رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى يستزيد من العلم والمعرفة واتصل بكبار علماء الأندلس واستقر في مدينة سرقسطة، وصل الطرطوشي الإسكندرية عام ١٠٩٦/هـ ١٠٩٦، بلغ عدد الكتب التي ألفها اثنين وعشرين مؤلفاً لم يتبقى منها سوى تسعة مؤلفات، أهمها كتاب سراج الملوك، وتوفي الطرطوشي في سنة ١١٢٦/هـ ١١٢٦، ودفن في مقبرة وعلة ناحية الباب الأخضر في مسجده الحالي. ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذاهب (بيروت، ١٩٩٦)، ٣٧١؛ جمال الدين الشيبان، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي (الإسكندرية، ٢٠٠١)، ٦١-٩٩.

ومكان الميضأة والمراحيض، فما كان من أبو شبانة إلا أن استهزأ منه متحدياً إياه أن ينشئ مسجداً مثله وقال له 'عندما تستطيع بناء مسجد فافعل فيه كيفما شئت' لعلمه عدم قدرة أحمد سالم المادية على فعل ذلك.

إلا أن يريد الله فترتفع أسعار الزجاج والصيني في أواخر عشرينيات القرن الماضي بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية، وينال أحمد سالم ثراءً كبيراً بنى على أثره هذا المسجد الرائع مستخدماً مهندسين إيطاليين، صمموا مسجداً يضم عناصر معمارية وفنية رائعة امتزجت فيها مدارس العمارة والفنون الإسلامية.

خامساً: تفسير ظهور شعار بني نصر في مسجد أحمد سالم

في ضوء ما سبق نجد أن ظهور هذا الشعار 'ولا غالب إلا الله' ذو مدلول ومعنى عند أحمد سالم الذي ظن أبو شبانة أنه لن يستطيع بناء مسجد، فنجد ذلك الشعار له مدلوله المعنوي والرمزي لدى منشئ المسجد، ولا يمكن فصل هذا التفسير لهذا النص عن باقي النصوص التي وردت في المسجد فنجد كتب أعلى باب المسجد من الخارج الحديث الشريف 'إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى'، وكتب أعلى باب الدخول وأعلى المحراب الآية الكريمة 'وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى' ٩. كل ذلك له دلالة واضحة أن شعار بني نصر وضع عن قصد وليس محض صدفة، وأتى ليكمل الصورة الفنية البديعة للمسجد وامتزاج مدارس الفن الإسلامي في مسجد واحد ليظهر التأثير الأندلسي في ظهور هذا

- ٢ هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسى البلسي، ولد في مرسية بالأندلس عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ونشأ بها، قرر والد أبو العباس الحج هو وأسرته ليتجه أبو العباس مع أسرته إلى الجزائر ليستقلوا السفينة منها، ولكن أثناء رحلتهم البحرية تغرق السفينة لينجو هو وأخوه، ثم يتوجهوا إلى تونس التي فيها اختار أبو العباس حياة التصوف واتجه إلى تعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة والخط والحساب وتحفيظ القرآن، توطدت العلاقة بينه وبين أبو الحسن الشاذلي فتتلمذ على يده، ثم انتقل هو وأستاذه في عام ٦٤٢هـ/١٢٤٢م إلى الإسكندرية، وفي عام ٦٤٦هـ/١٢٤٦م أعلن الشاذلي خلاف أبو العباس له، وأذن له في إلقاء الدروس، وخرج من تحت يديه أقطاب وعلماء أمثال البوصيري وياقوت العرشي، توفي عام ٦٨٥هـ/١٢٨٧م ودفن أسفل مسجده الحالي بالإسكندرية. جمال الدين الشيبلي، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ١٩٢؛ محمد حمدي عاشور، ذكرى العارف بالله المرسى أبو العباس (الإسكندرية، بدون تاريخ)، ٤-١٧.
- ٣ هي آخر أسرة عربية إسلامية حكمت الأندلس، أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر ونسب نفسه إلى يعد بن عبادة رئيس الأنصار، نادي بنفسه رئيسًا في قريته أرجونة استطاع بعدها أن يحكم كل بلاد جنوب الأندلس، وكون مملكة غرناطة التي ازدهرت في عصره ازدهارًا عظيمًا، وانتهت مملكة غرناطة وبنو نصر وحكم المسلمين للأندلس في ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ الموافق ٢ يناير ١٤٩٢م. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة، ٢٠٠٤)، ٤٤٤-٤٥٤.
- ٤ محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء (الإسكندرية، ٢٠٠٤)، ٢٨٧-٢٨٨.
- ٥ سورة يوسف، الآية ٢١.
- ٦ محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء، ٢٥٠.
- ٧ محمد عبد المنعم الجمل، قصور الحمراء، ٢٨٨.
- ٨ لهذا اشتهر المسجد باسم الصيني؛ نظرًا لأن منشئه أحمد سالم كان تاجرًا للأدوات المصنوعة من الخزف الصيني.
- ٩ سورة الضحى، الآية ٥.